ضحكات أناتوليا

مهند محمد توفيق

"و ليس كل فشل جديراً بأن يُطلق عليه قدر.."

مساءٌ ليس كمثله مساء يا درويش..

كيف حالها.. اخبرني عنها..لا تخبرني عني..اللعنةُ كلَ اللعنة على أحمقٍ مثلي..

لا يقوَ على كتمانِ أسرار قلبه الحربية..

كيف حالها..

هل امتعضت مني..هل أصابها الحزن من كلمات لم أقصد منها أي جروح..

و ما هو الممنوعُ يا درويش..و ما المسموح..

هل تنمو الاشجار في حدائق الغياب..

أشتقتُ لروحها المرحة..تلك التي دائماً ما استطاعت أن تنتشلني من حزني بسببِ بعدها عني..

أشتاق لسرعتها في تصحيح أخطائي اللغوية..

و أسماء الأغاني..و كلماتها.. كيف حال حبيبتي يا درويش..

بدأت ليلتي هذه بحالةٍ غريبة لم أتعرض لها من قبل..

حاولت ليلتها بشتى طرقي العنيدة أن أتذكر لها-ديما- بداية في حياتي..

لكني لم أستطع أن أتذكر البداية.. هل مدحت جمالها الهادئ الملحوظ..

هل كتبت قصيدة لها في لقاءنا الأول..هل تجرأت و أعطيتها أياها..

هل طلبت منها أن أرقص معها رقصةً تنتهي بموتي على الحان موسيقى (أناتوليا)..تلك التي أسمعها في قلبي عندما تضحك..

كيف بدأت قصة عشقي لهذه الرائعة..كيف طرقت يدي أبواب بلاد الغجر..و دخلتها بقلبي و خواطري.. و سقطت صريعَ حبي لها..

كيف لها أن يكون شعرها بهذا السواد.. و كيف أحتوت بين خصلات شعرها على النجوم.. الا تحترق النجومِ من قربها ل ديها..

هل تخشى الموت منها..ألا تخشى أن تُنسى فيها ولا يتذكرها أحد..

حسناً..أرى أنها لا تخاف الموت فيها..بل تتمناه..فأيُ عاقلٍ يلقاها سيتمنى أن يموت فيها و يُدفَنَ و يُصَلَّى على جثمانهِ..

ثم يُترَك ليعيش في نعيمهِ الأبدي مشاركاً لها في رحلاتها إلى السمواتِ ليلاً..و غربتِها نهاراً..

نعم يا درويش..ديما غريبةٌ مثلي تماماً..و تسقطُ في ليلتها ألف مرة..و تحاولُ أن تتزن..تحاولُ الصمود أوقات الحروب..

تحاول تهدأة أوضاعِ قلبها الذي لا تنقطع شكواه من ألمِ الغربة..

سأُحاولُ أن أرسمُ لك كل شيءٍ عن البداية..أجمل لحظةٍ في حياتي-البائسة

بحق-..

كان الشتاءُ -سيدَ العاشقين و المعذبين-هو البطل الحقيقي في تلك الليلة..

كتبتُ لها خطاباً بلا توقيع و القيته في حقيبتها الجلدية..

كتبتُ فيه عن أشياءٍ كثيرة.. و أكثرُ ما كتبته كان عن الخوف..

عن ماذا لو..لم تقبلني..لم تُحبني.. كم مرةٍ سأموت وقتها لو كانت تحبُ غيري بالفعل.. أذكرُ كلماتي و أحفظها عن ظهر قلب..

"لم أُخبِرها بعدُ أنّي أسميتُ نجمةً في السماءِ بأسمها..

و أني أراقبها من شرفةِ غرفتي كالمجنون..

لم أُخبِرُها أنّي أُحِبُها كثيراً.. أو أنّي أغارُ عليها منذ بدءِ الخَلق..

يفضحني غباءَ العاشقِ عندَ النظرِ إليها.. تُربِكُني عيناها..

عيناها جميلتان.. واسعتان وسع الدنيا.. و بنيتانِ كفنجانِ القهوة..

لطالما أعتَبرّتُها قهوتي.. فبرغمِ عشقي للقهوة..بقدرِ علمي بنفاذِ بقائُها..

و لذلك رضيتُ بها ساعةً كلَ حين..

فلطالما كان ألمُ الشوقِ في كلِ لقاءٍ أفضلَ بكثيرٍ من الحرمان.."

و ظل مدفعُ قلبي يضربُ بشدةٍ أشفقت على ضلوعي منها..

و بقى الوضعُ هادئاً لفترة ليست بقليلة في عوالمِ الليل..

و في ذاتِ ليلةٍ..كان القمرُ جميلاً و كأنه موصولٌ بوجهها..

البردُ القارسُ ينهشُ في بقايا الأمل في قلبي.. يُحدثُني أني أضعتُها للأبد..

و أني تسرعتُ حين أعترفتُ من وراءِ ستار.. حتى كتبت لي..

كتبت لي أخيراً..و كانت هذه أول نبضة لقلبي بعد أن كان قد مات من الانتظار.. "لقد تطور أسلوبك الكتابي كثيراً..حتى صار من يقرأ لك يعرف أنها كتابتك دون الحاجة للتأكيد.. صرتُ مشهوراً أنت و درويشك.."

دلفتُ في هذه الجملة إلى عوالمٍ كثيرة..

بين الخوف و الرجاء.. أحلام اليقظة..و حماس الأحياء..

حتى أستيقظت على كتاباتٍ و كتابات لا تنقطع بيني

و بين جميلتي-ديما-..

تطرقنا في أحاديثنا إلى مواضيعٍ عدة..حاولت -هي-وقتها أن تتأكدُ أنها هي المقصودة من كلمة(محبوبتي)..

ظللتُ أصفُ فيها لها..أحكيها مراتٍ و مرات..

يا إلهي..متى أحببتها إلى هذا الحد..لا أعلم.. حتى حان موعدُ اللقاء..

حلمٌ جميل..لا أستطيع وصفه بالكلمات حقاً..لكني سأحاول علّ الذكرى تنفعني و تُحييني..

انتهيتُ من عملي في حدودِ الساعةِ العاشرة و النصف تقريباً..

أسندتُ ظهري على سورٍ قصير بالجوار..

رميتُ بصري يميناً و يساراً..في ترقبٍ و حذرٍ شديديْن..كغارقٍ يرجو الهواء..

سطعَ نورٌ من ركن قريب..ثم ظهرت..

حوريةٌ من حورياتِ البحر في سترتها الزرقاء..

يقولُ البحارون(البحرُ يختار خواصهِ و يعطيهم من صفاته و جمالِ مخلوقاته..)

جاءت ديما..نجمةٌ تشبِهُ نجم الشمال فوق المحيط..

سترةٌ لونُ بحرٍ زادته-هي-جمالاً أزرقاً سرمدياً..

غطاءُ رأسٍ أبيض..يغطي سُوادَ ليلٍ كان قد استطال ظلامه..و حَكَم..

و عينان بنيتان تنضحانِ بكل ما في القهوةِ من غموضٍ و سكون..

نظرت لي..

اضطربت عيناي..حاولت التماسك..لكنها كانت-و ستظل-أذكى مني..

تعلقت عيناي في حرمِ عينيها..و ظللتُ لفترةٍ تتجاوزُ المائة عامٍ هناك..

أفقتُ من شرودي الدائم بها على صوتها..

-- درويش..كيف حالُك..

قلتُ لها في شوقٍ مفضوح..

- الحمد لله..كيف حالكِ يا ديما..

و همست في سري(يا حبيبتي)..

--الحمد لله..أعيش كما أعيش..

-- بالمناسبة..ألن تُخبرني من هي هذه الرائعة..

- أولم تعرفيها كل هذا الوقت..

- إنها تشبهكِ كثيراً..

--حقاً..تشبهني أنا..كيف ذلك و أنا لا أعرفها..

ثم أبتسم ثغرها الدقيق و كأن الشمس أشرقت بعد الف عامٍ من الغروب..

-نعم..تشبهكِ كثيراً..حتى أنها ذكية مثِلك..تفهمني..و لا توضح..و تشبه عيدان القمح..

--لكني لا أفهم أيُهنّ تقصد..

--أتقصد هذه زميلتك في العمل..

-لا..لا أقصد صديقتي (أميرة)..

--اذاً..هي صديقتك في الكلية..تلك التي حدثتني عنها أنها صدقيتك الدراسية الوحيدة..

-(هدى)..أتمزحين..إنها صديقتي المقربة..و لا أكِنُ لها إلا كل حب و تقدير..

--اذاً..من هي هذه الحبيبة الخفيّة..لقد أحترتُ من أمري..

-أخاف..

--أتخافُ منّي..لن أخبرها لا تقلق..

-لا..ستخبريها..و ستبتعد عنّي..

ثم قالت لي بذكاء فطريّ أكادُ أقسمُ أنه لم يُخلَقُ به إلّاها..

--حسناً..لا تخبرني الآن..أنتظر حتى أنتهي من هذه الفترة الدراسية الصعبة..

قلتُ لها في رجاءٍ خفيّ..

-و بعدها..هل ستساعديني..

قالت و قد رقصت عيناها..و رقص فؤادي في صدري معها..

--نعم..سأتحسس منها..و إن وجدتُ منها القبول..سأساعدُك..

"نعم..لقد تذكرتُ كيف بدأت في قلبي..لكني سأكمل شريط ذكرياتي هذا..

لا أعلم يا درويش كيف استطاعت عيني النوم ليلتها..-أسعدُ ليالي حياتي-"

سألتها إلى أين أنتِ ذاهبة عندما وجدتها تنظر في ساعةٍ يدِها..

أدركت حينها أنها على عجلةٍ من أمرها..

قالت لي أنها ذاهبةٌ إلى أبيها..و أنه بالجوار.. طلبت منها الأنتظار للحظات لم تَطُل..و تحججتُ بأني ذاهبٌ لإحضار القهوة..

قالت لي..

--ستتناولُ القهوة في هذا الوقت المتأخر..لن تستطيعَ النوم..

قُلتُ لها..

-لا تقلقي..لن أستطيعَ النوم هذه الليلة على كل حال..

أبتسمت-ديما-و أحمرت وجنتاها من خجلٍ كان گ كسوفِ القمر في السماء..

ثم ذاب قلبي.. مشينا معاً بضعِ خطواتٍ حتى دلفنا إلى ممشىً طويل تحوطه الأشجار و إضاءةٌ خافتة أسدلتها علينا عمدانٌ نحاسية تشبه ايامَ الأبيض و الأسود.. تحدثنا في أمورٍ كثيرة في صمتنا الذي كان هو السائدُ..

وصلنا إلى آخرِ هذا الطريق الذي وجدنا أبيها في آخره.. ودّعتُها..و ودّعتُ السعادةَ معها.. شربت قهوتي المظلومة مقارنةً بمحبوبتي.. عدتُ إلى بيتي..دخلت غرفتي و قُدسُ أقداسي.. أطفأتُ كلَ مصدر ضوءٍ حتى أُرضي ضوء القمر..

وضعتُ أسطوانة موسيقى (أناتوليا)..تلكَ التي تشبه ضحكاتها.. ووضعتُ رأسي على وسادتي-تلك التي تشعرُ بألمي- و حاولت أن أنام من ليلتها.. و لم أنجح..و هذه ليست مشكلة.. فلطالما كان للحبِ آثارٌ جانبية..